الفلسفة التفكيكية والأسس المنهجية لنقد وتقويم الدراسات الأدبية

م. د :عالية خليل إبراهيم
كلية التربية/الجامعة المستنصرية
البريد:aliakh93@ yahoo.com

المقدمة:

من الراجح عند الكلام عن المناهج الحداثية في الدراسات الأدبية من ناحيتي (القصور أو الكفاءة)، وحين النظر فيما أسسته من أصول نظرية وتطبيقات منهجية وأوجدته من حفريات معرفية لدراسة الأدب والعلوم الإنسانية بعامة، تناول لحظة انكسار مسارها وانحسار الضوء عنها في زمن قياسي مثل قمة الصعود المدوي وبداية الهبوط السريع لتلك المناهج وبالتحديد في العام 1966([1])،لحظة تنازع بين حضور وغياب، اثبات ونقض، تلك اللحظة هي التفكيكية بما وجهته من نقد جذري لأسس مشروع الحداثة جعلها تمثل المراحل اللاحقة للحداثة بما يسمى المرحلة البعدية أو ما بعد الحداثة، وأيضا ما بعد البنيوية" poststructuralism".

وجاء اختياري للتفكيكية في هذه الدراسة ليس من باب ترجيحها على المناهج الحداثية، وتبني طريقتها في معالجة النصوص من خلال مصطلحاتها مثل "الاختلاف المرجئ، الكتابة، الأثر والاثر الأصل، التشتيت، التابع، المكمل الفارماكون" وغيرها وإن كانت هذه المصطلحات سوف تمر ضمنيا في الدراسة، وإنما سأقارب التفكيكية بوصفها بحثا في المنهجية هدفه المراجعة الدقيقة للأسس الفكرية للمناهج تجعل الحاسة النقدية عند الباحث في حالة يقظة مستمرة وتمنحه القدرة لنقض المسلمات واجتراح البدائل باستمرار، فالتفكيكية قد عرفت نفسها بالسلب أو النقض من المناهج التي عاصرتها ،وقد جادلت جميع التيارات الفكرية في عصرها واتخذت رأيا ناقدا من مصطلحات الأصول، النظرية، المنهج، النقد الأدبي مما يؤهلها لأن تكون فلسفة توفر وعيا منهجيا متفحصا لمن يطالعها ويتمثل حججها، فالوعي المنهجي يعد كلمة البداية عند الشروع بالدراسة وهو نقطة النهاية أيضا . إن مراجعة الأسس الفكرية للمناهج لا يجعل سؤال الكفاءة والقصور بنية معلقة في الهواء وإنما تجذرها في أرض

الواقع، واقع الدراسات الأدبية في العراق ودرجة وعيها للمناهج الوافدة، فلماذا يتقبل منهج من المناهج في جامعاتنا ؟، وعلى سبيل المثال الأسلوبية، بينما تواجه التفكيكية بقلة الترحيب مقارنة بالمناهج النصية قبلها وما حظي به النقد الثقافي من بعدها من اهتمام واسع؟ هل لأن منطلقاتها فلسفية ؟ وما أحوج الباحث في الدراسات الأدبية لمعرفة فلسفية منظمة تكون له أرضية صلبة يستطيع من خلالها وعي المنهاج الوافدة وتمثل تطبيقاتها بالشكل الأمثل ومن ثم بإمكانه تجاوزها ونقضها ليقرر منهجه الموازي أو البديل.

سأتطرق في محاولتي هذه بداية الى السؤال الذي تطرحه التفكيكية على نفسها، وما يصفه بها غيرها ،فهل هي نظرية أدبية أم منهج نقدي، أم هي استراتيجية قرائية؟ أم فلسفة انسانية وتاريخية ؟،وهل من الممكن تسميتها علما بالأصول المنهجية للإنسانيات، ومن ضمنها الدراسات الأدبية؟.

ومن ثم سأتناول الجدالات الفكرية المحتدمة التي خاضتها التفكيكية مع خصومها من المنهجيات الأخرى ومنها "البنيوية، التداولية، استجابة القارئ،"، وكيف رد منظرو تلك المناهج بدورهم على دعاوى دريدا وانتقاداته، ومن ثم حالوا نقض طروحاته وتفنيد اراءه. ومن ثم سوف أختم بجملة من النتائج التي توصلت إليها بعد تلك المطالعات والتي ربما تؤشر لسلبيات تعاني منها الدراسات الأدبية، وإيجابيات نأمل في تحقيقها في المستقبل .

أولا: التفكيكية: النظرية الأبية والمنهج النقدي والمنهجية:

ما أراده "جاك دريدا" عندما طرح رؤيته استنادا إلى أفكار فيلسوف الظاهراتية "هايدغر" في النقض والهدم أن يضع مسافة بين نشاطه الفكري وبين مفاهيم مثل النظرية والمنهج وعلاقتهما الشائكة، لذلك من الممكن التعريف بتلك المفاهيم قبل الخوض في مقولات التفكيكية عنها.

قد لا تعرف النظرية الأدبية بنفسها وإنما بموضوعها مثل الأدب أو النقد،"رينيه ويليك" أول من وضع كتابا في النظرية الأدبية بالاشتراك مع "أوستن وارن" يقول:" إن مصطلح نظرية الأدب يتضمن كلا من نظرية النقد الأدبي ونظرية التاريخ"([2]). "تيري ايجلتون" لا يتحدث عن النظرية إلا في علاقتها بالأدب فهي تجاوب عن سؤال" ما هو الأدب"([3])، أما "رومان سلدن" في كتابه "النظرية الأدبية المعاصرة" فيقول:" إن التركيز على النظرية يتجه إلى تقويض مفهوم القراءة بوصفها نشاطا بريئا"([4]).

وتعرف من خلال علاقتها بالتطبيق أو المنهج "إنها محاولة لتوجيه الممارسات التطبيقية من موقع أعلى منها وثانيهما محاولة لإصلاح الممارسات عن طريق تحييد الغاية".([5])

لقد برزت النظرية الأدبية إلى الواجهة في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي لتواكب خضم التداخل الواسع بين الأدب من جهة والفلسفة والتاريخ وعلم النفس من جهة ثانية وذلك في طروحات نيتشة وماركس وفرويد، وساعد اجتياح الفلسفة اللغوية لميدان الدراسات الأدبية بعد ظهور البنيوية في فرنسا خاصة في تثبيت ركائز النظرية فاقتضى وجودها لفحص وشرح ومراجعة مفهوم الأدب أو الأدبية، ووضع أطر واضحة للممارسة التطبيقية في قراءة النصوص سواء أكانت تلك الممارسة وصفا أو تفسيرا أو تأويلا من خلال دراسة التداخل بين الأدب وبين العلوم الإنسانية الأخرى. وبالتالي فإن غاية النظرية الأدبية هي تحديد المعنى وضبطه نظريا وتطبيقيا.

في دراسته المهمة للتفكيكية يقول " جوناثان كللر " إن التفكيك ليس نظرية تضطلع بمهمة تحديد المعنى كي تخبرك كيف تجده ،فالتفكيك حين يقوم بخلخلة نقدية للتعارضات التراتبية التي تستند اليها النظريات، يبرهن على وجود صعوبات تعاني منها أية نظرية تضطلع بمهمة تحديد المعنى بطريقة أحادية، معنى يقصده المؤلف، معنى تحدده الأعراف، معنى يجربه القارئ بنفسه"([6]).

فالنظرية محكومة دائما بتناقض بنيوي ذاتي، وقد كان توجه "دريدا" ليس حكم الممارسة وضبطها وإنما دراسة مدى اتساقها أو تنسيبها، فلا يشرح التفكيك النصوص بالمعنى التقليدي الذي يحاول الإمساك بوحدة المحتوى، وإنما يكشف كيف تنتج مجازات النص منطقا يختلف عن منطق النص ذاته. لكن هل يعني ذلك أن القارئ لا يستطيع أن يخلص من أفكار "دريدا" بنظرية أدبية محددة، الناقد الأمريكي "ريتشارد رورتي" يرجح كونها نظرية واضحة قائمة بذاتها فيقول:" تواصل معظم كتابات دريدا حقلا من النشاط الفكري استهله "فريدريك نيتشة" واستمر عبر مارتن هايدغر، وهو حقل يتميز بقطيعة جذرية مع النزعة الأفلاطونية، أي مع عناد الفروق الفلسفية التي ورثها الغرب عن أفلاطون"([7]). فانتقاد "دريدا" للنظرية لا يعني أن مشروعه لا يمتلك نظرية محددة توصف بمحاولة التحرر من اشتراطات ميتافيزيقيا الحضور الغربية إلا إنها تبدو أكثر صرامة من غيرها بإصرارها على أن "لا شيء خارج النص".[8]، بل لا يوجد مؤلف نهائي أو معنى نهائي لأي نص مكتوب. ويرى دريدا

إن المعنى رهين لعبة اللغة والأشكال البلاغية المراوغة ولذلك فإن الفلسفة نفسها لا يمكنها أن تدعي مكانة أعلى من الأدب لأنها تواجه ذات اللعبة اللغوية.([9])

لقد حرص "دريدا" على تأكيد وجهة نظره الرافضة لأية نظريات مطلقة، فالتفكيكية تقبل الشيء ونقيضه ومن غير احتمال لربط النظرية بحركة التاريخ والواقع، التفكيك يبطل التراتب بين السبب والنتيجة عن طريق استبدال في الصفات المائزة غير عابئ باستكشاف دوافع العملية" فالنتيجة هي ما يتسبب في السبب حتى يصير سببا، ولذا من الأحرص منح النتيجة لا السبب مرتبة الأصل"([10]) ومثلما أكد "دريدا" على فلسفته المراوغة والشكاكة حرص منتقدوه على وصف نظريته بالغموض لأنها لا تقدم للقارئ منظومة فكرية متكاملة وإنما تنحت مصطلحات مركبة وشائكة من فروع معرفية شتى كما وتصعب ترجمتها إلى لغات أخرى، و"دريدا" بدوره يرفض الترجمة رفضا باتا، فهي مستحيلة بنظره، وغالبا ما تستخدم شروحات النظرية التفكيكية لتوضيح مفاهيمها لأن لغته عصية على الفهم .

وبعد أن قدحت النظرية التفكيكية شرارة انطلاق أفكار ما بعد الحداثة، هل من الممكن اعتبارها منهجا محددا لقراءة النصوص وتأويلها، فهل تعد منهجا نقديا؟.

يلح "دريدا" على أن التفكيك ليس منهجا، ولا تقنية ولا طريقة في النقد، ويرفض اقحام التفكيك في حقل النقد الأدبي، فيقول في رسالته إلى صديق ياباني" إن التفكيك بأية حال، ورغم المظاهر ليس تحليلا ولا نقدا وعلى الترجمة أن تأخذ هذا بنظر الاعتبار، ليس تحليلا بخاصة لأن تفكيك عناصر بنية لا يعني الرجوع إلى العنصر البسيط، إلى أصل غير قابل لأي حل، فهذه القيمة، ومعها قيمة التحليل نفسها هي عناصر فلسفات قابلة للتفكيك، وهو ليس نقدا لا بالمعنى العام ولا بالمعنى الكانتي، نسبة إلى كانت، إن هيئة ال" القرار ،أو الاختيار، أو الحكم هي نفسها شأنها شأن جهاز النقد المتعالي تشكل أحد الموضوعات أو الأشياء التي يستهدفها التفكيك".([11])

اقتبست هذا النص الطويل عن "دريدا" لأوضح لماذا لا يريد أن يعد التفكيك منهجا لقراءة النصوص، وتحليلها وتأويلها، ومن ثم اصدار حكم أو تقرير بشأنها؟ أن جميع هذه المصطلحات مثل "قراءة ،تفسير، تأويل، نقد" مصطلحات يستهدفها المفكك مثلما يستهدف غيرها. فتعداد التفكيك ضمن المناهج يمثل تراجعا إلى مدار المفاهيم التقليدية التي أسست فيما يرى "دريدا" خطاب العقل الغربي.

في دراسة "بيير زيما" للتفكيكية يقول: "أن من أولياتها هي طرح سيطرة المفهوم والمفهمة في التراث الغربي للنقاش، هذه السيطرة التي يشكل التعبير الأكثر صرامة عنها النظام الفلسفي ولا سيما هيغل".([12])،فيصف "دريدا" بأنه استلهم التراث الكانتي ومن بعده اراء الهيغليين الشباب حيال مفهمة الفن، فالفيلسوف" كانت" يميل إلى اعتبار الدلالة الفنية مجموعة من الدالات تستحضر أفكارا من دون التمكن من مماثلتها مع مفاهيم مخصوصة([13])،التفكيكية تقول بإزاحة المفهوم ليس بمعنى الغاؤه وإنما شرح كونه لعبة اختلافات تعارض تراتبي بين الحضور والغياب، فالأصول والأسباب والمفاهيم ليست ناتجة عن غياب مفاهيم أخرى سابقة عليها لأن اللغة ليست وسيطا شفافا بين الواقع والمفهوم، وليس المعنى حاضرا بينهما وإنما هي عملية تعيين أو تحديد ضمن نسق اختلافات . و"دريدا" يشدد على استحالة تأسيس تقعيد لغة نقدية "ميتا لغة" تتخذ موضوعا لها لغة أخرى، تكون بمثابة الطفيل على الأصل. فهو يدعو الى مأسسة النص أي جعل الكتابة نصا شاملا بديلا عن الفلسفة والتاريخ والأدب والنقد.

كل تلك الآراء والطروحات لم تمنع نقاد جامعة "بيل" الأمريكية وعلى رأسهم الناقد "بول دي مان" من رفع راية التفكيكية على ممارساتهم النقدية ،وقد بارك "دريدا" توجهاتهم تلك ،وكانت جامعة "بيل" فضاءً خصبا لتبادل الأفكار بين الرجلين والمكان الذي تبلورت فيه التطبيقات المنهجية التفكيكية بنسختها الأمريكية. يعرف "دي مان" المنهج التفكيكي بأنه "الكيفية التي يمكن بها رؤية السمات العارضة في نص بوصفها سمات تجعل فحواه الجوهري يضل عن قصده المزعوم فيعتريه تقويض تلقائي"([14]). مرة أخرى وبالرغم من تحفظات "دريدا" على المنهج إلا أن التفكيكية تمتلك مرجعية نظرية فلسفية صلبة وجهاز اصطلاحي واسع وتطبيقات على النصوص الأدبية وسياسية وقانونية كتبها "دريدا" نفسه ونقاد جامعة بيل وعلى رأسهم "دي مان"، واخرون ممن تأثروا وتبنوا الأفكار الدريدية ،كل ذلك يجعل من التفكيكية منهجا راسخا.

في شرح "ميشيل رايان" للتفكيكية يتطرق لموضوع المنطقة الحدية بين النظرية والتطبيق، ينطوي كلاهما على منطقة حدية تتشكل من العلاقة الاختلافية بين الاثنين لا من أحدهما بمفرده، فكل نظرية تصف ممارسة سابقة أو ممارسة تسعى إليها، ويقول:" إن الممارسة الخالصة أي فعالية الإرادة التي ترفض النظرية هي نظرية يقينية عن الممارسة"([15]).تشطر الميتافيزيقا المنطقة الحدية بين النظرية

والممارسة، فتعزل بينهما وتمنح امتيازا لأحدهما دون الاخر، فالمثالية تمنح النظرية امتيازا، بينما تمنح المادية غير الجدلية أو الوضعية الممارسة امتيازا.

يدعو المنهج التفكيكي للاشتغال ضمن هذه المنطقة الحدية التي تدرس وتناقش الاثنين وتصححهما معا، لأن العزل الميتافيزيقي بينهما يؤدي بهما الى الوقوع في دائرة المفاهيم الاختلافية المؤدية للنقض، والنقض بدوره لا يعد ممارسة سلبية تبتغي التخلي عن تطبيق المنهج ورفض مصطلحاته رفضا قاطعا بل بالضد من ذلك، فالمناهج ذات الأصول والمفاهيم هي من تحمل في داخلها إمكان نقضها،ومن الممكن أن ينقض المنهج معرفيا وتبقى اجراءاته فاعلة في فحص النصوص لأن ما من نظرية أو منهج يصل حد الاكتمال ويصير أصلا يبنى عليه، ولذلك فإن استراتيجية النقض تبقى عملية مستمرة مع استمرار النظريات والمناهج.

وبعد هل من الممكن اعتبار التفكيكية استراتيجية أو ممارسة فلسفية هدفها مراجعة أسس المناهج المختلفة ومن ثم محاولة نقضها، فهل من الممكن اعتبارها منهجية بما يمثله المصطلح من" علم قائم بذاته يأخذ الطرائق المتبعة في دراسات الاداب والتاريخ والاقتصاد وعلم النفس لينظر في أسسها العامة دراسة استقرائية تصنيفية مبنية على المقاربة"([16]). ويصف "كاظم جهاد" ما بعد البنيوية ساهمت في إقامة مبحث جديد في العلم وهو "الجنيالوجيا" والذي يعني البحث في أنساب الأفكار سيكون من أبرز ممثليه فوكو ودولوز([17]).

أن "الجينالوجيا" مصطلح يعمل على إفراد الخطابات، وضبط حدودها، والتمييز بين الملفوظات ،وإجلاء أنماط انتسابها واقترانها وانفصالها.([18])،وبالمثل فأن أفكار "دريدا" ترتبط بجنيالوجيا المفاهيم والأفكار" فيقول" إن تفكيك الفلسفة يعني الاشتغال عبر الجنيالوجية التي شيدت مفاهيم الفلسفة اشتغالا يقيم عند هذه المفاهيم إقامة يداخلها الشك، ويعين من منظور خارجي ليس بالإمكان منحه اسما أو وصفا بعد، ما قد حجبه هذا التاريخ أو أبعده"([19])، إن هذه التوجهات التفكيكية تقدم مفاهيم جديدة للسياسات الثقافية، والتيارات الفكرية والأدبية والفنية لا بد أن تؤدي إلى تغيير كيفي في الأساليب التي اتبعها المفكرون والنقاد والأدباء والفنانون قبل ذلك"([20])

ثانيا– التفكيكية ونقض مركزية اللوغوس "البنيوية":

تعني كلمة اللوغوس الكلمة أو الحضور والوجود، والفلسفة الغربية طوال تاريخها اسست لميتافيزيقيا الحضور، يقول دريدا:" "الحضور بوصفه جوهرا أو ماهية ووجودا أصليا غائيا، والحضور الزمني بوصفه نقطة الان أو اللحظة، والحضور الذاتي الذي ينطوي عليه الأنا المفكر the cogito والوعي والذاتية ، وحضور الذات والاخر معا، على هذا النحو تنعقد نزعة مركزية اللوغوس في تحديد وجود الموجود من حيث هو حضور"([21]،)وبالرغم أن النزعة الميتافيزيقية في الفلسفة قد تعرضت للنقض منذ منعطف القرن العشرين وسيادة اللسانيات، فقد أضحت فلسفة تحليل بعد قرون من التأمل، فقد عرف "دي سوسير" اللغة بأنها" نسق من العلامات"، وبذلك أصبح النسق والبنية والعلامة هما الجناحان اللذان فرشا ظلهما على العلوم الإنسانية في المئة عام المنصرمة. يعرف النسق بأنه" الحدث المخطط له ضمن حتمية جدولية لا تعرف التغيير بل المسببات المهنية والضرورة والزمنية والتركيب الكلي للأشياء"([22])، أما البنية فإنها " نسق من التحولات، له قوانينه الخاصة باعتباره نسقا، علما بأن من شأن النسق أن يظل قائما ويزداد ثراءً بفضل دور تلك التحولات"([23]).

يعرف "امبرتو أيكو" العلامة بأنها " شيء يقوم مقام شيء اخر، وحتى وإن تغيرت طريقة القيام مقام فذلك لا ينفي أننا في الحالتين ازاء ازدواجية جدلية فريدة من الحضور والغياب".([24])،النسق والبنية، الدال والمدلول، اللغة والكلام، التزامن والتعاقب، الشفاهية والكتابية وغيرها من الثنائيات السوسورية يصفها "دريدا" بأنها من بقايا الفكر الغربي الميتافيزيقي والذي يتمركز على الجانب الأول من الثنائية ويزحزح الثانية إلى الهامش. يؤكد عمل "سوسير" الكنه العلائقي للنسق وأنه ما من شيء في النسق سوى اختلافات، وتنطوي هذه النتيجة على نقد لنزعة مركزية اللوغوس ،فالانتهاء الى أن نسق اللغة لا يتضمن سوى اختلافات يقوض أية محاولة لإنشاء نظرية وضعية للغة في حدث الكلام أو في النسق.

وبحسب "دريدا" يتضمن عمل "سوسير" "توكيد نزعة مركزية اللوغوس ذلك أن مفهوم العلامة نفسه مؤسس على التفرقة بين الحسي والعقلي يصبح بمقتضاها الدال مجرد مجاز إلى المدلول، ومن ثم يحتل وضعا أدنى مقارنة بالمفهوم أو المعنى الذي يقوم بنقله"([25])،ثم يشرح "دريدا" مصطلحه المعروف "الاختلاف المرجئ" ليكون بديلا عن مركزية اللوغوس، ويعني هذا المصطلح، "عدم قابلية

الحسم، أي إلى تغاير بين منظوري البنية والحدث لا يقبل حلا هيغليا، اختلاف كامن يعد الشرط في عملية الدلالة كما يشير إلى فعل الاختلاف الذي ينتج الاختلافات"([26]) ،ويعرفه "عبد العزيز حمودة بأنه "مسألة تعارض تراتبي بين الحضور والغياب ويقتضي تفكيك هذا التعارض البرهنة على أن الدور الذي يقوم به الحضور لابد أن تكون له الخواص نفسها التي تعزى إلى نقيضه أي إلى الغياب".([27])، لا توجد بديهيات أولية ، ولا لحظات حقيقة مطلقة، ولا بنية مؤسسة مكتملة أو تطابق ذاتي إلا وينتجها الاختلاف المرجئ ولذا فهي ناشئة عنه، كل شيء يوجد لأنه يختلف عن شيء ويؤجله.

ثم يتطرق "دريدا" لمفهوم الكتابة والتي يعدها الفكر المتمركز لوغوسيا مجرد تمثيل للكلام ،فالأخير يحمل معنى يمكن الظفر به ،أما الكتابة فهي فعل تكملة أو أعادة للكلام وأحيانا تعمل على اخفاء دور الكلام وقد تغتصبه مما حدى بالفلاسفة وعلماء المنطق إلى نبذها، ومثلهم فعل "سوسير" حيث جعل من الكتابة شكلا مشتقا من الكلام، أما "دريدا" فيقلب هذا التراتب ويكون الكلام شكلا مشتقا من الكتابة لأنها تمتلك خاصية الثبات والإعادة والتكرار، وهذه الإعادة هي الشرط في أية علامة

وصف" زيما" فعل دريدا في شرح التباينات بين الكلام والكتابة بأنه يقوم بلغم هذه التعارضات ولا يلغيها فيقول: " يمكن أن نتساءل إذا لم يكن دريدا يبعث إلى الحياة التراث الماورائي عن طريق إرساء تعارضات دلالية مسلسلة جديدة مثل كلام/كتابة، لوغومركزية /تفكيكية".([28])، وانتقد اخر "دريدا قائلا:" ما دامت اللغة شيئا أنا نتاج له لا مجرد أداة استعملها، فأن الرأي القائل بأنني كيان موحد ثابت لابد أن يكون أيضا محض خيال"([29])، إن الغاء الهوية الذاتية للمنهج قد يؤدي إلى الغاء هوية الإنسان ما دامت لا توجد أسبقية للوعي الذاتي بالأشياء.

وقد ذهب "ليورنارد جاكسون" إلى أن بؤس البنيوية متأت من أنها قائمة على ثنائيات من الممكن أثبات فسادها مثل الدال والمدلول ،فما بالك بالذين جعلوا من تلك الثنائيات الواهية اساسا يبنون عليها نظرياتهم، ويضيف أن "تشومسكي" حين اكتشف الطابع التوليدي للغة كان قد نقض ما جاء به"سوسير"،وما العودة من التوليدية الى ثنائية الدال والمدلول بمثابة عودة رجل الى مرحلة الطفولة بعد إن اكتمل نضجا([30]).

هذا ما يخص مناقشات "دريدا" اللغوية ،فماذا عن الأدب؟.

هنالك رؤيتان متضادتان للأدب في التفكيكية أولها " لدريدا" الذي لم يكن مهتما بتعريف الأدب حتى لا يتم استحضار الثنائيات البنيوية المعهودة، ولا يستثني الأدب من نقائص الفلسفة كما فعل "بول دي مان" الذي رجح الأدب على الفلسفة بقوله:

" ينتهي الأدب إلى أن يكون الموضوع الرئيس في الفلسفة ...،وتنتهي الفلسفة إلى كونها عملية تأمل هدم دعواها على أيدي الأدب تأملا لا ينتهي".([31])، "بول دي مان" يقرن الأدب بعملية اللاوعي "تصبح سمة الأدب المائزة عدم القدرة على الفرار من حالة تفوق الاحتمال"([32]) ،ويتحدث عنه بلغة صوفية شاعرية ويستثنيه من عملية الخداع الذاتي في اللغة، فالشاعر بدوره ليس قريبا بدرجة كبيرة من الأشياء حتى يسميها كما هي عليه. واللغة الشعرية غير متزامنة مع الكون بل تبسطه فقط عبر لغة لا تقدر أن تكون ما تسميه، هي لغة رمز فحسب، لغة تعيد اكتشاف وحده الوجود بأسره في عالم الخيال وعالم الروح.([33]) ،هذه الرؤية الصوفية للأدب من الملاحظ إنها مغايرة تماما للبنيوية والتي كان ايجاد تعريف مناسب للأدب والشعر من أولى أولوياتها، لكنها ارتأت أن لا تعرف الأدب بذاته وإنما توضيح علاقته باللغة بكونه استخداما خاصا ترة، وانزياحا عن اللغة المعيارية تارة أخرى([34])، ومغايرة لما يطرحه "دريدا" ذاته عن الأدب حيث يقول:" إن تاريخ الفنون الأدبية قد ارتبط بتاريخ الميتافيزيقيا"([35]).

أن أسلوب الناقد الفرنسي "رولان بارت" النثري والذي يعبر عن افاضة في الكتابة مقابل صرامة التركيب حيث يستطيع أن يلهو متحررا جزئيا من استبداد المعنى يمثل التوجه الأمثل للكتابة الأدبية/النقدية التفكيكية.([36])

ثالثا: جدل "دريدا" مع منظري أفعال الكلام "أوستن" و"سيرل" :

يمكننا فهم الجدل المحتدم بين التفكيكية والتداولية بأنه جدل بين رؤيتين متناقضتين للغة، تقرر الأولى أن اللغة نظام مغلق مكتف بذاته أما الثانية فتقول بالقصد والعرف في تفسير النشاط اللغوي، وقبل التطرق لحيثيات هذا الجدال نعرف نظرية أفعال الكلام "لأوستن"، تشير هذه النظرية الى أن بنية لغة ما–أي نسق قواعدها تعد انتاج أحداث، أي ثمرة أفعال كلام سابقة، وأن ما نعنيه بمنطوق ما ليس انجاز فعل محايث في المعنى يلازم المنطوق ،إذ وحدها القواعد العرفية، هي التي تحدد ملامح السياق فتجعل من منطوق ما امرا أو طلبا أو وعدا".([37]) ،يفرق "أوستن" بين عبارات أو منطوقات

تقريرية تصف وضعا ما وقد تكون صادقة أو كاذبة، وفئة أخرى لا هي صادقة ولا هي كاذبة بل تنجز فعلا تحيل اليه.([38]) يرفض "أوستن" تفسير المعنى بمقتضى الحالة الذهنية أو النية الباطنة ويرى من الأصح تحليل أعراف الخطاب، واستحضار قصد الفعل الانجازي عند النطق به في ظروف مخصصة. نهضت نظرية أفعال الكلام على قوة الزام الفعل، ومعاودة تكرار العبارة مما يمنحها هويتها ويقوي معناها.

إن الهدف من العبارة الإنجازية أما وصف وضع ما أو صياغة واقعة ما سواء أكانت صادقة أم كاذبة ،لذلك فهي لا تأخذ بالحسبان الوظائف الاستشهادية للغة، والمحاكاة الساخرة والتحريف الساخر، العبارات التي لا ينطبق عليها معيار الصدق أو الكذب يعدها" اوستن" حالات هامشية أو عبارت زائفة لا يلتفت اليها المنظر([39]).

في مقالة شهيرة لدريدا بعنوان(التوقيع ،الحدث، السياق) يسلط فيها الضوء على نظرية الكلام ويصفها بأنها من الخطابات التي تقوض نفسها بنفسها عندما تضع حدا بين الجاد وبين الطفيلي في اللغة، "فإمكان التكرار ليس أمرا خارجيا يطرأ على الانجازات الجادة، هذا الإمكان جزء من الحالة التي يزعم أنها معيارية، إنه جزء جوهري وحيوي ومحايث ومستمر".([40])، ويصف نظرية أفعال الكلام بأنها مركزية صوتية ليس في وسعها أن تطرح مسلمة حضور نية المؤلف وتماثل فعل كلام مكرر الإ بمقدار ما تغض النظر عن السياق، فالمعنى يحدده السياق لكن ما من سياق يصل إلى درجة التشبع، وهو غير قابل للسيطرة عليه.([41]) يرى "دريدا" أن فعل الكلام الذي يدعي "أوستن" أنه معياري يتشكل من حالات غير سوية من التكرار والاستشهادات، وهذا التكرار غير المحدد في إطار تعدد الاعراف والسياقات هو الذي يجعل هوية الشكل الدال ممكنة ومؤسسة ولكنها ليست خالصة أو ثابتة أيضا.

يقلب "سيرل" أطروحة "دريدا" التي تقول إن قابلية التكرار تفكك تماثل الإشارة والتماسك الدلالي للمقال ويخلص للقول" هكذا فإن الملامح المخصوصة للقصدية التي نكتشفها في أفعال الكلام تتطلب قابلية تكرار لا تشمل فقط النموذج الذي حللناه، تكرار الكلمة في سياقات مختلفة، بل كذلك قابلية تكرار قواعد النحو".([42])

يشدد "دريدا" على أن المقال أو الخطاب يقول أكثر مما يريد قوله، وإن القصد ليس عملية شفافة فهو ظاهرة معقدة، وتعقيدها على علاقة مباشرة بقابلية التكرار التي يمكن أن تضعف التماسك الدلالي أو تقويه. ويضيف" فالقصدية الواعية لا تتحقق بالكامل ولا تحضر إلى نفسها لأن حركة الإعادة التي تجعلها ممكنة تقدم انشقاقا أو ازدواجا تشكيليا يجعل نقاءها مستحيلا"([43])، وقد كان إصرار "سيرل" على قصد المؤلف وبالمثل رد "دريدا" العنيف على دعاة نظرية أفعال الكلام وقوله بتعدد السياقات وتفتت الهوية الذاتية للنص نتيجة لعمليات التكرار التي ترافقه مثار استغراب المفكرين والنقاد في ذلك الوقت أن تصل حدة التناقض في الاراء الى تلك الجدالات الصاخبة والعنيفة([44]). وقد يقال بعد هذا النقاش أن التداولية قد ثبتت منهجيا وكانت أطول عمرا من منافستها التفكيكية، وهذا على الأقل ما يلاحظ في ميدان البحث الأكاديمي العربي والعراقي على حد سواء ،حيث ازداد الاهتمام في السنوات العشر الأخيرة بهذا المنهج ،وذلك لأن التداولية منهجا معتدلا في طروحاته وليس مغاليا مثل التفكيكية في دعوته لانفتاح السياق غير المحدود، وتفتيت الهوية الذاتية للنص إلا أن الطروحات التفكيكية ستبقى حاضرة في كل مراجعة لنظرية أفعال الكلام، لأهمية ما طرحته من اراء وواجهت به المنهج التداولي من حجج.

في خضم هذا الخلاف وجه الماركسيون نقدا لدريدا فحواه أن تشديده على التكرار والاختلاف يفتقر إلى الصواب ،فهذا التشديد بحد ذاته هو ميتافيزيقيا([45])،أما "جوناثان كوللر" فيقول:" يتضح من الكلام عن المعنى والسياق كيف يتعامل التفكيك مع فكرة التاريخ، وهو أمر غامض بالنسبة إلى كثيرين، فمن يستحضرون التاريخ يجعلونه أساسا يحدد المعنى، وبما أن دريدا لا يستخدمه بهذه الطريقة فإنهم يرونه مستندا إلى النص وحده te xtual ".([46])،على الرغم من أن التفكيكية قد نأت بنفسها عن خضم الواقع السياسي للعالم الغربي إلا أن أفكارها قد استثمرت في مجال السياسة وحركة التاريخ، فالبعض حاول سحبها إلى الطروحات الماركسية كونها تتضمن نقدا وربما نقضا للديمقراطية الغربية الحديثة، والبعض الاخر حاول أن يجير الحركة التفكيكية للفلسفة البراغماتية" النفعية" في الأدب والسياسة والاجتماع[47].

رابعا: التفكيكية ونظريات التأويل:

يتفق النقاد على أن التفكيكية منهج للتفسير والتأويل غايته القلب والتفتيش عن سقطات النصوص في زوايا الهامش والمكمل والتفاصيل التافهة منها، والبحث عن مواطن العمى وتهافت المنطق، منهج يؤسس لحرية اللعب في اللغة وبالمعنى، هذا على مستوى الممارسة التطبيقية ،فماذا عن رأي التفكيكية على المستوى النظري بالمناهج التأويلية ومنها استجابة القارئ وقصد المؤلف؟ يقول "دريدا": " توجد طريقتا تفسير ضمن عملية التفسير، الأولى تسعى الى فك شفرة المعنى الذي ينأى عن لعبة العلامة ونظامها والذي يقتات على ضرورة التفسير بما هو نفي عن الأصل، أما الثانية التي لن تمضي نحو الأصل فثبت اللعبة وتحاول العبور إلى ما وراء الإنسان والإنسانية"([48])،تحيل الطريقة الأولى إلى المدرسة التأويلية التقليدية والتي ترجع في جذورها الى دراسة تفسير النص الإنجيلي عند "شيلاماخر" ومن بعده" دلثاي" وقد عرفت بالهرمنيوطيقا([49]).واذا كان التوجه الرومانسي للأدب في القرن التاسع عشر قد رجح هيمنة المؤلف على ما تقوله نصوصه، وعلى مجمل عملية التواصل الأدبي، فإن نظرية الاستجابة والتي جاءت في بدايات القرن العشرين، قد عكست ذلك وجعلت من القراءة والقارئ حكما على تفسير النصوص وتأويلها،فالقراءة عملية دينامية فعالة وحركة معقدة، والعمل الأدبي موجود ضمن ما يسميه المنظر البولندي "رومان انغاردن" إرشادات عامة على القارئ أن يجعل منها أمرا واقعا([50])

يزيح "دريدا" قصد المؤلف من أحقية امتلاكه تفسير نصوصه ازاحة تامة، وكما ورد ذلك في ردوده على منظري أفعال الكلام، فاستراتيجية تحديد السياقات والاعراف تارة والاتكاء على مقاصد التأليف تارة أخرى لا يحدد أطر الدلالة، وله أيضا تحفظات على نظرية استجابة القارئ منها" إن احتساب المعنى نتاج خبرة القارئ لن يحل مشكلة المعنى بل يزيحها على نحو ينتج مفهوما عن الخبرة منقسما على نفسه ومؤجلا فتنحل حرية القارئ الخلاقة".([51]) ،إن مفاهيم مثل الخبرة أو الاستجابة تزودنا بمعلومات عن المفهومين نفسيهما وليس عن معنى النص المقروء، فمفهوم الاستجابة مثل المقاصد كلاهما مظللان بحسب وجهة نظر "دريدا".

من أبرز الذين تصدوا لأفكار "دريدا" عن التأويل ،الناقد الأيطالي المعروف "أمبرتو أيكو" وهو من النقاد الذين لهم توجه خاص في السيميائية، وعادة ما يعرف منهجه بأنه "سيميائي–تداولي" وذلك لأنه

ينتمي لسيميائية "بيرس" والتي تجعل سيرورة الدلالة مشتركة بين ثلاثة أطراف العلامة وموضوعها ومؤولها، كما أنه يمنح أهمية للاستدلال وعملية التواصل في فك شفرة العلامة ولا يقول بالعلاقة الاعتباطية بين الدال والمدلول التي نادى بها "سوسير"([52]).يفند" ايكو" اراء "دريدا" في الاختلاف لأنها تمثل الفهم الأكثر تطرفا لطروحات" سوسير" في الاعتباطية والاختلاف "حيث يعتبر فيه شيء ما على أنه غائب–علينا افتراض أن شيئا ما اخر موجود" ولو كان وجودا بالقوة"([53])،فالوجود المادي الملموس ضروري لتبيان لعبة الاختلافات وليس الموضوع حالات ذهنية مجردة كما يقول بذلك التفكيكيون.

يصف "أيكو" تأويل "دريدا" بأنه تأويل مفرط، وقد خصص لذلك العديد من مقالاته وقد ترجم بعضا منها في كتابي" التأويل والتأويل المفرط"، و "التأويل بين السيميائيات والتفكيكية" ،وخلاصة وجهة نظره تشير إلى أن التأويل المفرط والذي لا يضع سقفا تنتهي عنده حرية المؤول ولعبه بالنصوص ليس جديدا على الفكر الإنساني وقد يرجع في جذوره الى الهرمسية والغنوصية، تلك الشطحات الفكرية التي عرفها المصريون واليونانيون القدماء، ويقول عن هذا الفكر:" السر النهائي في المشروع الهرمسي أن كل شيء هو سر، ومن ثم فلا بد وأن السر الهرمسي فارغ".([54])

هو يطلق على فكر "دريدا" بالهرمسية والغنوصية المعاصرة، ويرسم صورة كاريكاتورية بعبارات ساخرة من هذا الفكر كأن يقول" القارئ الحقيقي هو من يدرك أن سر النص هو خلاؤه"([55])،إن فعل القراءة بحسب وجهة نظر "أيكو" هو تفاعل مركب بين أهلية القارئ وبين الأهلية التي يستدعيها النص[56]،فهنالك" مقصدية النص" التي تتوسط بين قصدية المؤلف واستجابة المؤول، وبمقتضى هذه القاعدة يتبين التأويل الجيد من التأويل المفرط.

خاتمة ونتائج:

إذا كانت الفلسفة التفكيكية تختص بدراسة الأسس المنهجية للنظريات والمناهج وكما جاء في تقرير هذا البحث أو فرضيتة، فما هي تلك الأسس التي توصل؟ نذكر منها

1- سؤال المحور المناهج بين "الكفاءة أو القصور" وإذ نطبق الاستراتيجية التفكيكية على هذين الثنائيين،يتضح أولا :يكون القصور الذي يبدو أنه تابعا أو مكملا للكفاءة هو الأصل في هذه الثنائية فما دامت الممارسة تستند الى نظرة أحادية للمعنى ،فجميع المناهج توصم بالقصور والكفاءة مركز يجب نقضه، ثانيا: يبطل التراتب بين الكفاءة والقصور فيكون الاثنان بمنزلة السبب والنتيجة بالمرتبة ذاتها فتكون جميع المناهج كفؤ لأنها تبحث عن الحقيقة في حيزها الخاص والذي تراه مناسبا، وفي ذات الوقت هي قاصرة لأنها تدرك جانبا واحدا ليس إلا، فيكون الاثنان اصلا واحدا وليس طرفين متضادين.

2- اشتغال الباحثين على المنطقة الحدية بين النظرية والتطبيق ضروري في الدراسات الأدبية، بمعنى اخر لا يبدأ الباحث من التبني الأعمى للنظرية وتطبيقاتها وإنما يبتدأ بالشك والمسائلة فيشتغل على المفاهيم الاكثر انفتاحا للنظرية حتى يضمن للممارسة حيويتها وديناميكيتها.

3- أكدت المناهج ما بعد الحداثية ومنها التفكيكية على مبدئين مهمين وهما التعددية المعرفية، والاعتداد بالقراءة المنتجة والناتجة عن الهوية الحضارية المتفردة للثقافات والشعوب، وهذا ما رسخته نظرية الخطاب البعدية والممارسات المرتبطة بها مثل تحليل الخطاب ونقده والبلاغة الجديدة وغيرها، فهذه النظرية تمتح من أصول فلسفية متعددة، وقد جمعت شتات العلوم الإنسانية تحت مظلة الدراسات اللسانية مع الاهتمام بتمييز اشكال الخطاب المختلفة بعضها عن بعض، هذه النظرية لم تأخذ ما يناسبها من الاهتمام في الدراسات الأكاديمية العراقية وأحيانا يسلط الضوء على جانب من جوانبها كأن يكون الحجاجي أو التواصلي ويتم التعامل معها بوصفها مناهج قائمة بذاتها بمعزل عن النظرية كاملة .

4- ذكرت في مفتتح البحث أن ستينيات القرن الماضي شهدت صعود البنيوية واخفاقها ولم تعمر التفكيكية التي نقضتها كثيرا فجاءت السنون بعدها صاخبة بالأفكار التي تلت ذلك من نسوية وحوارية وتناصية وثقافية وتاريخانية ونقد ثقافي وما بعد الكولونيالية وسياسات العولمة

وغيرها، وفي ظل ذلك نادت أصوات فكرية لتأسيس نظرية أدبية وثقافية عربية تستوعب مناهج الاخر ولا تقطع صلتها بالموروث والأصل والهوية، لكن هذه الأصوات قد خفت وبهتت بعد فترة وتركت على الهامش، من وجهة نظر تفكيكية تؤمن بالاختلاف المرجئ أقول من **الممكن سحبها من الهامش الى المركز مرة أخرى**.

المصادر والمراجع:

1–التأويل والتأويل المفرط ،**امبرتو ايكو**،ترجمة ناصر الحلواني،مركز الانماء الحضاري،سوريا،ط1، 2008.

2– التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، امبرتو أيكو، ترجمة سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،الطبعة الثانية،2014.

3–التاريخ والحقيقة لدى ميشيل فوكو، السيد ولد أباه، الدار العربية للعلوم، بيروت،ا لطبعة الثانية،2004.

4–التفكيكية ،دراسة نقدية، بيير زيما، تعريب اسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،1996.

5– الخروج من التيه، عبد العزيز حمودة، سلسلة عالم الفكر ،الكويت ،الطبعة الأولى 2003.

6– السيميائية وفلسفة اللغة، أمبرتو أيكو، ترجمة أحمد الصمعي، مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت،2005.

7– الكتابة والاختلاف، جاك دريدا، ترجمة كاظم جهاد، دار توبقال للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،1988.

8– المنهجية في الأدب والعلوم الانسانية، العروي ،كيليطو، الفاسي ،دار توبقال للنشر والتوزيع،الطبعة الأولى،2001.

9– مداخل الى التفكيك، جاك دريدا، بول دي مان واخرون ،ترجمة وتحرير حسام الداية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى 2013.

10– مشكلة البنية،زكريا ابراهيم، مكتبة مصر ،دار مصر للطباعة،1976.

11– مفاهيم الشعرية، حسن ناظم، دراسة مقارنة في الأصول والمنهج، الطبعة الأولى ،2003.

12– مقدمة في النظرية الأدبية ،تيري ايجلتون، ترجمة ابراهيم جاسم العلي، دار الشؤون الثقافية ،بغداد، الطبعة الأولى،1992.

13- موسوعة النظريات الأدبية، نبيل راغب، الشركة المصرية العالمية للنشر، الطبعة الأولى 2003.
14- النظرية الأدبية المعاصرة، رومان سلدن، ترجمة جابر عصفور، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى 1998.
15- النظرية الأدبية الحديثة من علم اجتماعي الى صوفية نصية وبالعكس، ليونارد جاكسون، ترجمة ثائر دين، ملف النص والقارئ، مجلة فصول،2006.
16- نظريات معاصرة، جابر عصفور، مكتبة الأسرة،ا لقاهرة، الطبعة الأولى،1998.

الهوامش

[1] – وهو العام الذي القى فيه الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا في مؤتمر عن البنيوية في جامعة بالتيمور ورقته والتي كانت تحت عنوان "البنية والعلامة واللعب في خطاب العلوم الإنسانية" ،كتاب مداخل الى التفكيك، تحرير وترجمة حسام نايل،356.

[2] –من كتاب نظريات معاصرة،299.

[3] –مقدمة في النظرية الأدبية، تيري أيجلتون،8.

[4] –النظرية الأدبية المعاصرة، رومان سلدن،19.

[5] – من كتاب الخروج من التيه، عبد العزيز حمودة، 22 ،والنص لستانلي فيش.

[6] –في التفكيك، دراسة جوناثان كللر ،"،308.

[7] – التفكيك،رتشارد رورتي،من كتاب "مداخل الى التفكيك"،368,

[8] –من أشهر العبارات التي تؤطر النظرية والمنهج التفكيكين ،نجدها مبثوثة في جميع الكتب التي تقارب التفكيكية

[9] –ينظر موسوعة النظريات الأدبية، نبيل راغب،التفكيكية،228.

[10] –في التفكيك،جوناثان كللر،260.

[11] – الكتابة والاختلاف، جاك دريدا، ت كاظم جهاد،60، 61.

[12] –التفكيكية، بيير زيما، ت أسامة الحاج،9.

[13] –ينظر الكتاب نفسه،11.

[14] – مقالة في التفكيك، ريتشارد رورتي،372.

[15] –التفكيك تمهيد ونقد وسياسة، ميشيل رايان،424.

[16] – المنهجية في الاداب والعلوم الإنسانية، عبدالله العروي،8.

[17] –الكتابة والاختلاف،24.

[18] –ينظر التاريخ والحقيقة لدى ميشيل فوكو، السيد ولد أباه،15.

[19] –في التفكيك،258.

[20] – ينظر موسوعة النظريات الأدبية، نبيل راغب، فصل التفكيكية،227.

[21] –في التفكيك، جوناثان كللر، في التفكيك،256.

[22] –مشكلة البنية، زكريا ابراهيم،13.

[23] –المصدر نفسه،33.

[24] – السيميائية وفلسفة اللغة،امبرتو ايكو، ت أحمد الصمعي ،56.

[25] –في التفكيك،273.

[26] –نفسه،272.

[27] –المرايا المحدبة، عبد العزيز حمودة،268.

[28] – التفكيكية،71.

[29] –مقدمة في النظرية النقدية،141.

[30] – النظرية الأدبية من علم اجتماع الى صوفية نصية، ليونارد جاكسون، ت: ثائر ديب.

[31] –التفكيك،328.

[32] –التفكيك،382.

[33] –وجه الرمزية المزدوج ،بول دي مان، مداخل الى التفكيك،164.

[34] –ينظر مفاهيم الشعرية،حسن ناظم،21.

[35] –مداخل الى التفكيك،382.

[36] 0–مقدمة في النظرية الأدبية،174.

[37] – في التفكيك،286.

[38] –ينظر المصدر نفسه،288.

[39] –ينظر في التفكيك،290.

[40] –في التفكيك،285.

[41] –ينظر التفكيكية، بيير زيما ،78 وما بعد ، وفي التفكيك، جوناثان كللر، شرح نظرية أفعال الكلام ونقد دريدا لها ،285–306.

[42] – من كتاب بيير زيما،وقد ذكر المترجم العبارة بالتنصيص عن كتاب"سيرل"،82.

[43] –التفكيك تمهيد ونقد وسياسة، ميشيل رايان،449.

[44] –على سبيل المثال ما أورده "امبرتو ايكو من استغراب،

[45] –المصدر نفسه455.

[46] – في التفكيك،305.

[47] –من هؤلاء "ريتشارد رورتي" وهو من اشهر دعاة البراجماتية، في دراسته عن التفكيك الواردة في كتاب "مداخل الى التفكيك".

[48] –في التفكيك،308.

[49] –ينظر التأويل والتأويل المفرط، امبرتو أيكو، ت ناصر الحلواني،10.

[50] –مقدمة في النظرية الأدبية،84.

[51] –في التفكيك،309.

[52] –ينظر السيميائية وفلسفة اللغة،56–60

[53] –المصدر نفسه،63.

[54] –التأويل والتأويل المفرط،42،المقالة ذاتها المعنونة" التأويل والتاريخ" في "التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، امبرتو أيكو،ت، سعيد بنكراد،"هرمس" أو isis هو من أقدم ألهة المصريين/29،أما "الغنوصية"، وهو فكر عرفه الإغريق في القرن الثاني الميلادي" وسيصبح دالا على المعرفة الحدسية ،السابقة على العقلانية ،إنه يعين الهبة الالهية المكتسبة من السماء"/38.

[55] –التأويل والتأويل المفرط،50.

[56] – ينظر التأويل بين السيميائيات والتفكيكة،86.